مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٧) العدد (٤)
الإصدار السادس والعشرون
(١-١١) ٢٠٢٦

اثر ظاهرة الحرائق واتتشارها في قرطبة خلال عهد الخلافة الأموية (٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣١م)

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

م.م بيداء طالب عبد الحسن
جامعة ذي قار، كلية التربية للعلوم الصرفة.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٥ أكتوبر ٢٠٢٦م

*** المقدمة**

اخذت قرطبة خلال عهد الخلافة الأموية (٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣١م) تشهد تطوراً عمرانياً وحضارياً واسعين، جعلها واحدة من اهم المدن الأندلسية وأكثرها ازدهاراً في الغرب الإسلامي، كونها أصبحت من المركز السياسية والاقتصادية والثقافية البارزة بسبب الاستقرار السياسي للدولة الأموية فضلا عن اولى الخلفاء الاندلسيون اهتمام واضحا بالعمران والأسواق والمرافق العامة، فانعكس ذلك كله في الازدهار الحضري مع اتساع الأحياء السكنية وانتشار الأسواق الحرفية فيها، الى جانب ذلك ارتفعت كثافة السكان في داخل المدن الاندلسية بشكا واضح ومنها مدينة قرطبة، لكن التوسع العمراني والنشاط الاقتصادي الكثيفين أدّيا إلى ظهور المشكلات الحضرية داخل المدن، فبرزت معها ظاهرة الحرائق في الحياة العامة داخل قرطبة، نتيجة لطبيعة الأبنية في قرطبة التي انتشر فيها استخدام الخشب فزادت من وقوع الحرائق داخل الأحياء ولاسيما في المناطق التجارية المزدحمة بالسكان.

ولمقتضيات الدراسة قُسّم البحث إلى خمسة محاور، تناول المحور الأول البيئة العمرانية لقرطبة وعلاقتها بظاهرة الحرائق، في حين خُصص المحور الثاني لدراسة أسباب الحرائق في المدينة، أما المحور الثالث فقد تناول الآثار الاقتصادية والعمرانية للحرائق، وناقش المحور الرابع الآثار الاجتماعية والإدارية لهذه الظاهرة، في حين تناول المحور الخامس دور السلطة الأموية في مواجهة الحرائق والحد من آثارها، ثم خُتم البحث بأبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الحرائق، قرطبة، الخلافة الأموية، الحياة العامة، العمران، الأسواق.

Abstract

This research examines the phenomenon of fires and their impact on Córdoba during the Umayyad Caliphate in al-Andalus (316–422 AH / 928–1031 CE), considering fires as one of the urban phenomena associated with the city's remarkable architectural and economic development during that period. Córdoba became one of the largest and most prosperous cities in al-Andalus due to political stability, the expansion

of markets, crafts, and public facilities, which led to increasing urban density and the growth of residential and commercial quarters.

The study aims to analyze the nature of fires in Córdoba, identify the main factors that contributed to their occurrence and spread, and examine their economic, social, and urban impacts on the city. It also investigates the role of the Umayyad authority in confronting this phenomenon and limiting its consequences.

The research demonstrates that fires were closely connected to several urban and economic factors, including the extensive use of wood and flammable materials in buildings and markets, the concentration of workshops and crafts dependent on fire, in addition to crowded markets and narrow streets within the city. Natural factors such as strong winds and dry weather also contributed to the spread of fires in densely populated areas.

The study concludes that fires in Córdoba were not merely accidental incidents, but rather an urban phenomenon closely related to the architectural and social structure of the city during the Umayyad Caliphate. They also reflected important aspects of economic life, urban organization, and public administration in Andalusian cities during that period.

Keywords: Fires, Córdoba, Umayyad Caliphate, Urbanization, Public Life, Markets.

*** البيئة العمرانية لقرطبة وعلاقتها بظاهرة الحرائق خلال عصر الخلافة الأموية**

شهدت قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية (٣١٦–٤٢٢هـ/٩٢٨–١٠٣١م) توسعاً عمرانياً واضحاً جعلها من أكبر الحواضر الإسلامية في الأندلس وأكثرها ازدهاراً، إذ ارتبط نموها الحضري بالاستقرار السياسي الذي شهدته الدولة الأموية واهتمام الخلفاء بالعمران والمرافق العامة والأسواق، وقد انعكس هذا التطور على اتساع الأحياء السكنية وكثرة الأسواق والحوانيت والورش الحرفية داخل المدينة، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الكثافة العمرانية والسكانية بصورة كبيرة[١]، وقد ساعد الموقع الجغرافي لقرطبة على نموها الحضري، إذ قامت على ضفاف نهر الوادي الكبير الذي وفّر المياه وسهّل حركة النقل والاتصال بالمناطق المجاورة[٢]، كما أصبحت المدينة مركزاً سياسياً واقتصادياً مهماً نتيجة اتخاذها عاصمة للخلافة الأموية في الأندلس خلال عهد عبد الرحمن الثالث، الأمر الذي انعكس على ازدهار الأسواق والحرف والمرافق العامة داخلها، ويشير ابن حيان إلى اتساع عمران قرطبة وكثرة أحيائها وأسواقها خلال

[١] عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٣١١.

[٢] الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٤٥٧.

عصر الخلافة[٣]، كما وصفها الإدريسي بأنها من أعظم مدن الأندلس وأكثرها اتساعاً وعمراناً[٤]، وقد أدى هذا الاتساع إلى ظهور أحياء وأسواق مكتظة بالسكان والحرفيين، فضلاً عن انتشار الحوانيت والمخازن التجارية داخل المدينة، الأمر الذي جعل بعض المناطق أكثر عرضة لانتشار الحرائق عند وقوعها.

شهدت المدينة ازدهاراً واضحاً في النشاط التجاري والحرفي، إذ ضمت أسواقاً متخصصة للحرف والصناعات المختلفة، مثل أسواق النساجين والصاغة والحدادين وغيرهم من أصحاب المهن[٥]. وقد ارتبطت بعض هذه الحرف باستخدام النار أو المواد القابلة للاشتعال، الأمر الذي زاد من احتمالات وقوع الحرائق داخل الأسواق والمناطق الحرفية، كان لطبيعة البناء داخل قرطبة أثر واضح في اتساع الحرائق وانتشارها، إذ استُعملت الأخشاب في بعض الأسقف والأبواب والحوانيت، كما استُعملت مواد سريعة الاشتعال في أجزاء من الأبنية والأسواق[٦]، وقد أدى تقارب الأبنية وضيق بعض الأزقة داخل الأحياء والأسواق إلى تسهيل انتقال النيران بين الحوانيت والمساكن عند وقوع الحرائق، ولاسيما في المناطق التجارية المكتظة.

جاءت الكثافة السكانية العالية واتساع الحركة العمرانية من زيادة الضغط على الأسواق ومرافقها العامة، فتركزت انشطتها الاقتصادية والحرفية في بعض الاجزاء من المدينة[٧]، فكانت الازدحامات تزيد من صعوبة السيطرة على الحرائق أو التقليل من زيادة انتشارها، لاسيما مع الاستخدام المحدود للوسائل المحصصة لمواجهة الحوادث من ذلك النوع [٨]. ويكشف ذلك عن طبيعة البيئة العمرانية التي ساعدت على ظهور بعض المشكلات الحضرية، ومن بينها الحرائق التي ارتبطت بازدحام الأسواق وكثرة الأنشطة الحرفية داخل المدينة، ولم يكن التوسع العمراني في قرطبة منفصلاً عن ازدهار الحياة الاقتصادية داخلها، إذ أدى النشاط التجاري إلى تزايد المخازن والحوانيت والبضائع القابلة للاشتعال داخل الأسواق، مثل الأخشاب والزيوت والأقمشة[٩]، وقد انعكس ذلك على زيادة احتمالات تعرض بعض الأسواق أو المرافق التجارية للحرائق، خصوصاً في المناطق التي تركزت فيها الأنشطة الحرفية والتجارية، لأن قرطبة بلغت مستوى كبيراً من الكثافة العمرانية والتطور الحضري خلال عصر الخلافة الأموية[١٠]، كما بيّن عنان أن ازدهار المدينة واتساع عمرانها أدّيا إلى ظهور بعض المشكلات المرتبطة بالحياة

---

٣ ابن حيان، حيان بن خلف، المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢، ص ١١٥.
٤ الإدريسي، محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج٢، ص ٥٤١.
٥ المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص ٣٤٢.
٦ ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س كولان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢، ص ١٩٠.
٧ ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، الصلة، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م، ج١، ص ٨٨.
٨ المقري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٤.
٩ ابن عبدون، محمد بن أحمد، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ١٩٥٥م، ص ٤٨.
10 Lévi-Provençal, Évariste, Histoire de l’Espagne Musulmane, Paris, 1950, Vol.3, p. 221.

الحضرية والأسواق[١١]. ومن خلال ذلك يتضح أن البيئة العمرانية في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية لعبت دوراً مهماً في ظهور ظاهرة الحرائق، نتيجة اتساع المدينة وكثرة الأسواق والحرف واستعمال بعض المواد القابلة للاشتعال في الأبنية، فضلاً عن الكثافة السكانية والعمرانية التي ميّزت المدينة خلال تلك المرحلة.

*** أسباب ظاهرة الحرائق في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية**

ارتبطت ظاهرة الحرائق في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية بعدد من العوامل العمرانية والاقتصادية والطبيعية التي انعكست بصورة مباشرة على الحياة الحضرية داخل المدينة، وقد ساعد اتساع العمران وكثرة الأسواق والحرف والمرافق التجارية على زيادة احتمالات وقوع الحرائق وانتشارها، ولاسيما في المناطق المكتظة بالسكان والأنشطة الاقتصادية، وكانت طبيعة البناء من أبرز العوامل التي ساعدت على ظهور الحرائق داخل المدينة، إذ استُعملت الأخشاب وبعض المواد القابلة للاشتعال في أجزاء من الأسقف والأبواب والحوانيت والأسواق[١٢]، وقد أدى تقارب الأبنية وضيق الأزقة في بعض الأحياء والأسواق إلى انتقال النيران بسرعة بين المساكن والحوانيت عند وقوع الحرائق، خصوصاً في المناطق التجارية المكتظة.

ارتبطت الحرائق بالنشاط الحرفي والصناعي داخل قرطبة، إذ ضمت المدينة عدداً كبيراً من الورش والأسواق المتخصصة بالحرف التي تعتمد على النار في أعمالها اليومية، مثل الحدادة وصناعة المعادن وصناعة الزجاج والأفران[١٣]، وقد أدى استعمال النار داخل هذه الورش إلى زيادة احتمالات وقوع الحرائق، ولاسيما في الأسواق التي تركزت فيها الأنشطة الحرفية بصورة كبيرة، ومما أشار اليه المقري كثرة الأسواق والحوانيت داخل قرطبة واتساع النشاط التجاري فيها[١٤]، فعكست زيادة كميات البضائع والمواد القابلة للاشتعال داخل الأسواق من قبيل الأخشاب والزيوت والأقمشة وبعض المواد التجارية الأخرى، وتكدسها داخل الحوانيت والمخازن من اتساع شرارة الحرائق مع صعوبة السيطرة عليها عند وقوعها، وكانت قرطبة ذات الكثافة السكانية العالية من اكثر المدن انتشارا للحراق فيها[١٥].

ادت العوامل الطبيعية دوراً في زيادة خطورة الحرائق داخل المدينة، ولاسيما خلال فترات الجفاف أو اشتداد الرياح، إذ كانت الرياح تساعد على انتقال النيران بين الأبنية والأسواق بسرعة أكبر[١٦]، كما أن ارتفاع درجات الحرارة في بعض فصول السنة ساعد على زيادة احتمالات اشتعال الحرائق داخل المناطق التجارية والحرفية، اذ كان لطبيعة التنظيم العمراني داخل المدينة أثر واضح في صعوبة الحد من الحرائق، إذ إن ضيق بعض الأزقة وصعوبة الحركة داخل الأسواق المكتظة أعاق أحياناً محاولات السيطرة على النيران أو منع امتدادها إلى الأبنية المجاورة[١٧]، لاسيما وأن اتساع العمران خارج بعض أجزاء المدينة القديمة

[١١] عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣١٨.
[١٢] ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٠.
[١٣] ابن حيان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢١.
[١٤] المقري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٤.
[١٥] عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٢.
[١٦] الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦١.
[١٧] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص ٩٠.

أدى إلى زيادة عدد المناطق المعرضة لمثل هذه الحوادث، ارتبطت بعض الحرائق بالإهمال أو ضعف الرقابة داخل الأسواق والحرف، خصوصاً في المهن التي تعتمد على استعمال النار أو المواد سريعة الاشتعال[١٨]، ولهذا اهتمت السلطة الأموية بالإشراف على الأسواق والحرف من خلال نظام الحسبة، الذي تولى مراقبة بعض الأنشطة التجارية والحرفية داخل المدينة، وأشار ابن عبدون إلى أهمية تنظيم الأسواق والحرف والإشراف على المهن التي قد تؤدي إلى وقوع الحرائق[١٩]، فضلا عن ذلك فقد شدد على ضرورة مراقبة بعض الأنشطة المرتبطة بالنار داخل الأسواق والأحياء السكنية، وهو ما يعكس إدراك الإدارة الأندلسية لخطورة هذه الظاهرة داخل المدن الكبرى، في حين بيّن حسين مؤنس أن الكثافة العمرانية وكثرة الأسواق والحرف داخل المدن الأندلسية الكبرى أسهمت في ظهور عدد من المشكلات الحضرية المرتبطة بالازدحام والعمران[٢٠]، في حين أشار دوزي إلى أن الأسواق الأندلسية كانت شديدة الاكتظاظ ومتقاربة الحوانيت، الأمر الذي ساعد أحياناً على انتشار الحرائق داخلها[٢١].

*** الحرائق في قرطبة واثارها الاقتصادية والعمرانية**

اثرت الحرائق في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية في الحياة الاقتصادية والعمرانية داخل المدينة، وجاءت تلك الحرائق بتدني عمل الأسواق والحوانيت والمساكن والمرافق العامة، فضلاً عن ازدياد تأثيرها على النشاط التجاري والعمران الحضري في داخل مدينة قرطبة، فارتبطت خطورة تلك الحرائق بمكانة قرطبة الاقتصادية سواء في الاندلس او خارجها، لاسيما وانها مثلت أهم المراكز التجارية والحضرية الأندلسية خلال عصر الخلافة الأموية، فما ضمته من أسواق متعددة ومتخصصة وحرف وصناعات متنوعة[٢٢]، لذا فإن تعرض اسواقها وحوانيتها للحرائق زاد من خسائرها اقتصادية وشلّ حركتها التجارية[٢٣]، وهو ما اكد بأن الحرائق التي التي وقعتف ي داخل الأسواق كانت تؤدي إلى احتراق كميات من البضائع والمواد التجارية، لبى جانب تضرر الحوانيت والمخازن المرتبطة بنشاطها الاقتصادي، كما أن تقارب الأسواق وكثرة البضائع القابلة للاشتعال ساعد أحياناً على امتداد النيران إلى مناطق تجارية واسعة داخل المدينة.

أثرت الحرائق في الحرف والصناعات التي اعتمدت عليها الحياة الاقتصادية داخل قرطبة، إذ كانت المدينة تضم عدداً كبيراً من الورش الحرفية المرتبطة بصناعة المعادن والنسيج والزجاج وغيرها من الأنشطة الاقتصادية[٢٤]. وقد أدى تعرض بعض هذه الورش للنيران إلى خسارة أدوات العمل والمواد الخام، فضلاً عن تعطّل بعض الأنشطة الحرفية لفترات مؤقتة.

ولم تقتصر الآثار الاقتصادية على الأسواق والحرف فقط، بل امتدت إلى المخازن والمستودعات التي كانت تضم

---

١٨ الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٩٥.

١٩ ابن عبدون، المصدر السابق، ص ٥٢.

٢٠ مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٢٨٧.

21 Dozy, Reinhart, Spanish Islam: A History of the Muslims in Spain, London, 1913, p. 412 .

٢٢ عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٥.

٢٣ المقري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٨.

٢٤ ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج١، ص ٢١٤.

كميات من البضائع والمواد التجارية[٢٥]، وقد كان احتراق هذه المخازن يؤدي أحياناً إلى نقص بعض السلع داخل الأسواق أو اضطراب حركة البيع والشراء، خصوصاً إذا أصابت الحرائق مناطق تجارية مهمة داخل المدينة، وقد انعكست الحرائق على النشاط العمراني داخل قرطبة، إذ أدت بعض الحرائق إلى تضرر المساكن والأحياء والأسواق، الأمر الذي استدعى إعادة إعمار بعض الأبنية أو إصلاح المرافق المتضررة[٢٦]. وقد ساعد اتساع العمران وكثرة الأبنية المتقاربة على زيادة حجم الأضرار الناتجة عن الحرائق داخل بعض الأحياء والأسواق المكتظة.

كان لطبيعة البناء أثر واضح في تضاعف الخسائر العمرانية، إذ إن استعمال الأخشاب وبعض المواد القابلة للاشتعال في أجزاء من الأبنية والأسقف ساعد على انتقال النيران بسرعة بين الحوانيت والمساكن المتجاورة[٢٧]، كما أن ضيق الأزقة داخل بعض المناطق المكتظة أعاق أحياناً محاولات الحد من امتداد الحرائق أو السيطرة عليها بسرعة، اذ أدت بعض الحرائق إلى اضطراب النشاط التجاري والحركة اليومية داخل المدينة، إذ كان تضرر الأسواق أو إغلاق بعض المناطق المتأثرة بالنيران ينعكس على حركة السكان والتجار والحرفيين[٢٨]. وأثّرت هذه الحوادث أحياناً في مصادر رزق بعض الفئات المرتبطة بالأسواق والحرف المتضررة، ولكن على الرغم من هذه الخسائر، فإن قرطبة استطاعت المحافظة على مكانتها الاقتصادية والعمرانية نتيجة قوة النشاط التجاري واتساع الحركة الاقتصادية داخلها، فضلاً عن تدخل السلطة الأموية في إصلاح بعض المرافق المتضررة وإعادة تنظيم الأسواق والأحياء التي تعرضت للأضرار[٢٩]، ساعد ذلك على استمرار النشاط الحضري والاقتصادي داخل المدينة رغم تكرار بعض حوادث الحرائق، وهو ما أشار اليه هيو كينيدي إلى أن قرطبة كانت تمثل مركزاً اقتصادياً وعمرانياً مهماً في الأندلس خلال عصر الخلافة الأموية، وأن الأسواق والحرف شكّلت عنصراً أساسياً في ازدهارها الحضري[٣٠]، بيّنه محمد عبد الله عنان أن اتساع العمران وكثرة الأسواق داخل المدينة أدّيا إلى تعقّد الحياة الحضرية وظهور بعض المشكلات المرتبطة بالبيئة العمرانية[٣١]. ومن خلال ذلك يتضح أن ظاهرة الحرائق كان لها أثر واضح في الحياة الاقتصادية والعمرانية بقرطبة خلال عصر الخلافة الأموية، إذ انعكست على الأسواق والحرف والمساكن والمرافق العامة، وأدّت أحياناً إلى خسائر مادية واضطراب في النشاط الحضري، إلا أن قوة الحياة الاقتصادية والعمرانية داخل المدينة ساعدت على تجاوز آثار هذه الحوادث واستمرار ازدهار قرطبة خلال تلك المرحلة.

*** زيادة الحرائق في قرطبة والآثار الاجتماعية والإدارية لها**

لم تكن ظاهرة الحرائق في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية مقتصرة على الجوانب الاقتصادية والعمرانية فحسب، بل امتدت لتشمل جوانب اخرى كالحياة الاجتماعية والإدارية، واثرت تلك الظاهرة بشكل كبير على السكان بصورة عامة

---

٢٥ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص ٩٣.
٢٦ ابن الأبار، محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص ١٠٢.
٢٧ الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦٥.
٢٨ ابن حيان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٦.
٢٩ الإدريسي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٤٤.
30 Kennedy, Hugh, Muslim Spain and Portugal: A Political History of al-Andalus, Routledge, London, 1996, p. 146.
٣١ عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣١.

والأحياء والأسواق وتنظيم الحياة العامة، فضلاً عن تأثيرها في الدور الإداري الذي اضطلعت به السلطة الأموية في مواجهة المشكلات الحضرية داخل قرطبة، اذ كانت الحرائق تلحق اضرارها ببعض المساكن والأحياء السكنية، وهو ما جعل معه استقرار الحياة اليومية داخل المدينة غير ممكن نوعا ما [٣٢]. فاحتراق بعض الحوانيت أو المساكن كان يؤدي إلى خسائر مادية ومعيشية، ولاسيما للفئات المرتبطة بالحرف والأسواق، إذ فقد بعض السكان مساكنهم أو أدوات عملهم نتيجة هذه الحوادث، وأشار ابن حيان إلى تعرض بعض مناطق قرطبة لأضرار نتيجة الحرائق التي أصابت الأسواق والأحياء[٣٣]، ويكشف ذلك عن أن آثار الحرائق لم تقتصر على الأبنية وحدها، بل امتدت إلى الحياة اليومية للسكان وحركة الأسواق داخل المدينة، كما أن امتداد النيران داخل المناطق المكتظة كان يؤدي أحياناً إلى اضطراب الحياة العامة وتجمع السكان لمحاولة الحد من انتشار الحرائق، كما أثّرت الحرائق في الاستقرار الاجتماعي داخل بعض الأحياء، إذ أدى تضرر الأسواق أو تعطّل بعض الحرف إلى تأثر مصادر رزق عدد من السكان المرتبطين بالنشاط الاقتصادي داخل المدينة[٣٤]. وقد انعكس ذلك على بعض الفئات الاجتماعية، خصوصاً الحرفيين وأصحاب الحوانيت الذين كانت معيشتهم تعتمد بصورة مباشرة على استمرار النشاط التجاري داخل الأسواق.

ولم تكن الآثار الاجتماعية منفصلة عن طبيعة البيئة العمرانية داخل قرطبة، إذ إن الكثافة السكانية وضيق بعض الأزقة وتقارب الأبنية ساعدت على تضاعف الأضرار عند وقوع الحرائق[٣٥]، لاسيما وأن اكتظاظ الأسواق والأحياء أعاق أحياناً عمليات السيطرة على النيران أو إخلاء بعض المناطق المتضررة بسرعة، قد أدت بعض الحرائق إلى تعطّل جزئي لبعض المرافق العامة أو اضطراب الحركة داخل الأسواق والشوارع القريبة من المناطق المتضررة[٣٦]، الأمر الذي انعكس على انتظام الحياة اليومية داخل المدينة، ولاسيما في المناطق التجارية المكتظة بالحركة السكانية والاقتصادية.

ومن الجانب الإداري، أدركت السلطة الأموية خطورة المشكلات الحضرية المرتبطة بالأسواق والحرف داخل قرطبة، لذلك اهتمت بتنظيم الأسواق والإشراف على بعض المهن والحرف من خلال نظام الحسبة[٣٧]، وقد تولى المحتسب مراقبة الأسواق والحوانيت والإشراف على بعض الأنشطة المرتبطة بالنار أو المواد القابلة للاشتعال، بما يساعد على الحد من أسباب الحرائق داخل المدينة، اذ أشار ابن عبدون إلى ضرورة تنظيم الأسواق والحرف ومراقبة بعض المهن التي قد تؤدي إلى وقوع الحرائق، كما شدد على أهمية الإشراف على الحوانيت والورش المرتبطة بالنار داخل الأسواق والأحياء السكنية[٣٨]، ويكشف ذلك عن وجود اهتمام إداري بالمحافظة على استقرار الحياة الحضرية داخل المدن الأندلسية، فأسهمت السلطة الأموية في

[٣٢] المقري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٢.
[٣٣] ابن حيان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٩.
[٣٤] ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج١، ص ٢١٨.
[٣٥] الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦٥.
[٣٦] ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٣.
[٣٧] ابن عبدون، المصدر السابق، ص ٥٢.
[٣٨] المصدر نفسه، ص ٥٥.

إصلاح بعض الأضرار الناتجة عن الحرائق، ولاسيما ما يتعلق بالأسواق أو المرافق العامة التي تتضرر نتيجة هذه الحوادث[٣٩]. وقد ساعد الاستقرار السياسي وقوة الإدارة الأموية على استمرار النشاط العمراني والاقتصادي داخل قرطبة رغم تعرضها لبعض المشكلات الحضرية.

أشار شوقي ضيف إلى أن قرطبة بلغت مستوى كبيراً من التوسع الحضري خلال عصر الخلافة الأموية، الأمر الذي أدى إلى تعقّد الحياة الاجتماعية والعمرانية داخلها[٤٠]، كما بيّن ريتشارد فلتشر أن الكثافة العمرانية داخل المدن الأندلسية الكبرى ساعدت على زيادة آثار الكوارث الحضرية عند وقوعها[٤١]. ومن خلال ذلك يتضح أن ظاهرة الحرائق كان لها أثر واضح في الحياة الاجتماعية والإدارية بقرطبة خلال عصر الخلافة الأموية، إذ انعكست على السكان والأسواق والمرافق العامة، كما دفعت السلطة الأموية إلى الاهتمام بتنظيم الأسواق والحرف والإشراف على بعض الأنشطة المرتبطة بالحياة الحضرية داخل المدينة.

*** دور السلطة الأموية في مواجهة ظاهرة الحرائق والحد من آثارها في قرطبة**

أدركت السلطة الأموية في قرطبة أهمية المحافظة على استقرار الحياة الحضرية داخل المدينة، ولاسيما مع ما شهدته من توسع عمراني وازدهار اقتصادي خلال عصر الخلافة الأموية، وقد ارتبطت ظاهرة الحرائق بعدد من المشكلات العمرانية والتنظيمية التي دفعت الإدارة الأموية إلى التدخل من خلال الإشراف على الأسواق والحرف والمرافق العامة، والعمل على الحد من الأسباب التي قد تؤدي إلى وقوع الحرائق أو اتساع آثارها داخل المدينة، وكان نظام الحسبة من أبرز الوسائل التي اعتمدتها السلطة الأموية في تنظيم الحياة الاقتصادية والحضرية داخل قرطبة، إذ تولى المحتسب مراقبة الأسواق والحرف والإشراف على الأنشطة المرتبطة بالبيع والصناعة والخدمات العامة[٤٢]، وقد شمل هذا الدور متابعة بعض المهن التي تعتمد على استعمال النار أو المواد القابلة للاشتعال، مثل الحدادة والأفران وصناعة المعادن، لما قد تشكله من خطر داخل الأسواق والأحياء السكنية المكتظة، وأشار ابن عبدون إلى ضرورة مراقبة أصحاب الحرف والأسواق ومنع الممارسات التي قد تؤدي إلى الإضرار بالسكان أو الأبنية[٤٣]، فشدد على أهمية تنظيم أماكن بعض الحرف الخطرة داخل المدينة، بما يقلل من احتمالات وقوع الحرائق أو انتشارها داخل الأسواق والأحياء السكنية، واهتمت السلطة الأموية بتنظيم الأسواق والمرافق العامة بصورة تساعد على المحافظة على الأمن والاستقرار داخل المدينة[٤٤]. وقد شمل ذلك الإشراف على الحوانيت والمخازن وتنظيم بعض الأنشطة التجارية والحرفية، خصوصاً في المناطق المكتظة التي تكثر فيها البضائع والمواد القابلة للاشتعال.

لعبت الإدارة الأموية دوراً في إصلاح بعض الأضرار الناتجة عن الحرائق التي قد تصيب الأسواق أو المرافق العامة، إذ

---

[٣٩] ابن الأبار، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٢.
[٤٠] ضيف، المصدر السابق، ص ١١٨.
[41] Fletcher, Richard, Moorish Spain, University of California Press, Berkeley, 1992, p. 97.

[٤٢] ابن عبدون، المصدر السابق، ص ٥٢.
[٤٣] المصدر نفسه، ص٥٨.
[٤٤] عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣٧.

كانت المحافظة على النشاط الاقتصادي والعمراني تمثل جزءاً مهماً من سياسة الدولة داخل العاصمة الأموية[٤٥]، وقد ساعدت قوة الدولة واستقرارها السياسي على استمرار عمليات الإعمار وإعادة تنظيم بعض المناطق المتضررة عند الحاجة، فارتبط دور السلطة بالمحافظة على نظافة الأسواق وتنظيم حركة السكان والحرف داخل المدينة، لما لذلك من أهمية في الحد من بعض المشكلات الحضرية المرتبطة بالاكتظاظ وكثرة الأنشطة التجارية[٤٦].

ولم يكن دور السلطة مقتصراً على الجوانب التنظيمية فقط، بل ارتبط أيضاً بمحاولة الحد من آثار الحرائق بعد وقوعها، من خلال إصلاح المرافق المتضررة أو إعادة تنظيم بعض الأسواق والأحياء[٤٧]، وقد ساعد ذلك على استمرار النشاط الاقتصادي والحياة اليومية داخل المدينة رغم تعرض بعض المناطق لحوادث الحرائق، غير أن قدرة السلطة على الحد من هذه الظاهرة لم تكن مطلقة، إذ إن طبيعة العمران وكثافة الأسواق والحرف داخل قرطبة جعلت من الصعب القضاء نهائياً على احتمالات وقوع الحرائق[٤٨]، كما أن محدودية الوسائل التقنية المتاحة في تلك المرحلة أثّرت في سرعة السيطرة على النيران أو منع انتشارها داخل المناطق المكتظة، فقد بيّن محمد عبد الله عنان أن الإدارة الأموية أولت اهتماماً كبيراً بتنظيم المدن والأسواق والمرافق العامة داخل قرطبة[٤٩]، كما أن ازدهار العاصمة الأموية تطلب وجود تنظيم إداري مستمر للإشراف على الحياة الحضرية والاقتصادية داخل المدينة[٥٠]. ومن خلال ذلك يتضح أن السلطة الأموية أدّت دوراً مهماً في مواجهة ظاهرة الحرائق والحد من آثارها في

[٤٥] ابن الأبار، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٤.
[٤٦] المقري، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٥.
[٤٧] ابن حيان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٣.
[٤٨] الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦٨.
[٤٩] عنان، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤١.
[50] Lévi-Provençal, Évariste, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950, Vol.3, p. 229.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر التراثية

١- ابن الأبار، محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م .

٢- ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، الصلة، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م .

٣- ابن حيان، حيان بن خلف، المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م .

٤- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م .

٥- ابن عبدون، محمد بن أحمد، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ١٩٥٥م .

٦- ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م .

٧- الإدريسي، محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م .

٨- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م .

قرطبة، من خلال تنظيم الأسواق والحرف والإشراف على المرافق العامة ومراقبة بعض الأنشطة المرتبطة بالنار، فضلاً عن إصلاح الأضرار التي كانت تنتج عن هذه الحوادث داخل المدينة، الأمر الذي أسهم في المحافظة على استقرار الحياة الحضرية خلال عصر الخلافة الأموية.

*** الخاتمة**

تناول هذا البحث دراسة ظاهرة الحرائق وآثارها في قرطبة خلال عصر الخلافة الأموية (٣١٦–٤٢٢هـ/٩٢٨–١٠٣١م)، بوصفها إحدى الظواهر الحضرية المرتبطة بالتوسع العمراني والنشاط الاقتصادي الذي شهدته المدينة خلال تلك المرحلة. وقد سعت الدراسة إلى تحليل البيئة العمرانية التي ساعدت على ظهور الحرائق، وبيان أسبابها، وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، فضلاً عن توضيح دور السلطة الأموية في مواجهة هذه الظاهرة والحد من آثارها، وقد أظهرت الدراسة أن قرطبة شهدت توسعاً عمرانياً كبيراً نتيجة الاستقرار السياسي وازدهار التجارة والأسواق والحرف، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الكثافة السكانية واتساع الأحياء والأسواق داخل المدينة.

ظهر لنا بأن النشاط الحرفي والتجاري داخل قرطبة من أبرز العوامل المرتبطة بظهور الحرائق، نتيجة لانتشارة كثرة محلات الورش والمهن المختلفة التي اعتمدت في عملها على استخدام النار كالحدادة والأفران وصناعة المعادن، الى جانب تواجد كميات كبيرة للبضائع والمواد القابلة للاشتعال وخزنها داخل الأسواق والمخازن التجارية.

ومن جانب اخر، فأن الحرائق زادت من تاثيراتها المباشرة على الحياة الاقتصادية والعمرانية داخل مدينة قرطبة، وهو ما ادى الى الاضرار بالأسواق والحوانيت والمساكن والمرافق العامة، كما أثّرت في النشاط التجاري والحياة اليومية للسكان، ولاسيما في المناطق المكتظة بالحرف والأسواق.

اولى الخلفاء الامويون في الاندلس زيادة اهتمامهم بتنظيم الحياة الحضرية داخل قرطبة من خلال تنظيم وتحسين نظام الحسبة وزيادة اشرافهم على الأسواق عن طريق العمل على مراقبة بعض الأنشطة المرتبطة بالنار أو المواد القابلة للاشتعال وإصلاح ما لحق به من اضرار مباشرة نتجت عن الحرائق، مما

٩- المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م .

ثانياً: المراجع العربية الحديثة

١٠- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م .

١١- مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٨٥م .

١٢- ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، القاهرة، د.ت .

ثالثاً: المراجع الأجنبية

13- Dozy, Reinhart, Spanish Islam: A History of the Muslims in Spain, London, 1913.

14- Fletcher, Richard, Moorish Spain, University of California Press, Berkeley, 1992.

15- Kennedy, Hugh, Muslim Spain and Portugal: A Political History of al-Andalus, Routledge, London, 1996.

16- Lévi-Provençal, Évariste, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950.

اسهم في محافظتهم على استقرار الحياة العامة للناس بشكل طبيعي.

كانت ظاهرة انتشار الحرائق في مدينة قرطبة ليست عبارة عن حوادث عرضية او حدثت بشكل منفصل، وانما ارتبطت نوعا ما في طبيعة البيئة العمرانية والاقتصادية لفيها خلال عصر الخلافة الأموية، فجاء ذلك انعكاسا مهماً لطبيعة الحياة الحضرية والتنظيم الإداري داخل الأندلس في تلك المرحلة، وكشفت عن علاقتها اتلوطيدة بين الازدهار العمراني والأسواق من جهة، وظهور بعض المشاكل الحضرية التي ارتبطت بكثافة السكان من جهة ثانية.

الهوامش